أى: سنعطيهم جزاءهم كاملاً ؛ لأنهم يفسدون فى الكون ، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار فى أن يفعل الشىء أو لا يفعله ، وإن لم تنضبط حركة الاختيار ، فالتوازن الاجتماعى يصير إلى اختلال.

وما دام للإنسان حق الاختيار ؛ فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذى يضم التكاليف الإيمانية.

وهم حين قلدوا الآباء قد ساروا فى طريق إفساد الكون ؛ لذلك يُوفِّيهم الحق سبحانه نصيبهم من العذاب .

والمفهوم من كلمة «النصيب [1]» أنها للرزق ، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب ، وفى هذا تهكم عليهم ، وسخرية منهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ [2] مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ [3] ﴿١١٠﴾ ﴾

---

(١) النصيب: القسم والحصة من الشىء. قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا .. ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة] أى: لهم حظ وقسم وحصة هى حق لهم من كسبهم. [القاموس القويم: مادة (ن ص ب)].

(٢) سبق، يسبق سبقاً: تقدم، فهو لازم. وسبقه: تقدمه، فهو متعد. واسم الفاعل: سابق. واسم المفعول: مسبوق. قال تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال] أى: تقدم وثبت فيه الحكم من قبل، وهو اللوح المحفوظ. [القاموس القويم ١/٣٠١]. والكلمة: قضاء الله وحكمه السابق فى اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [هود] أى: قضاؤه بتأجيل الحكم بين الناس إلى يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (س ب ق)، (ك ل م)] بتصرف.

(٣) الريب: الشك. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة] ورابه الأمر، يريبه ريباً وريبة: شك فيه. والريب: حادث الدهر المفاجىء. وريب المنون: الموت. قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور] أى: حادث الموت. وقال تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [التوبة] أى: مصدر شك ونفاق. وأرابه: أوصله إلى الشك وأدخل الشك فى نفسه. واسم الفاعل: مريب. قال تعالى: ﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ ﴾ [هود] على سبيل التوكيد أى: فى شك موصل إلى شك. وأراب الرجل، فهو مريب: صار موضع ريبة وشك لا يطمئن إليه الناس. قال تعالى: ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ق] [القاموس القويم : مادة (ر ى ب)].

وسورة هود هى السورة الوحيدة فى القرآن التى جاء فيها ذكر رسول واحد مرتين ، فقد ذكر الحق سبحانه أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون ، وأن يريه الآيات ، ولم يزد [1] ، ثم انتقل من ذلك الإبلاغ فقال سبحانه:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٩٨) ﴾ [هود]

أى: أنه أعقب أولية البلاغ بالختام الذى انتهى إليه فرعون يوم القيامة ، فيُورد قومه النار.

ثم يأتى الحق سبحانه هنا إلى موسى عليه السلام بعد ابتداء رسالته ؛ ولذلك يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١١٠) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن ذِكْر موسى عليه السلام فى البداية كان بمناسبة ذِكْر ما له علاقة بشعيب عليه السلام حين ورد موسى ماء مدين ، ولكن العجيب أنه عند ذِكْر شعيب لم يذكر قصة موسى معه ، وإنما ذكر قصة موسى مع فرعون.

وقد علمنا أن موسى عليه السلام لم يكن آتياً إلى فرعون إلا لمهمة واحدة ، هى أن يرسل معه بنى إسرائيل [2] ولا يعذبهم.

وأما ما يتأتى بعد ذلك من الإيمان بالله فقد جاء كأمر تبعىٍّ ، لأن

---

(١) وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) ﴾ [هود].

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) ﴾ [الأعراف].

رسالة موسى عليه السلام لم تكن إلا لبنى إسرائيل ؛ ولذلك جاء هنا بالكتاب ليبلغه إلى بنى إسرائيل منهجاً ، أما فى الموضع الأول فقد ذكر سبحانه الآيات التى أرسل بها موسى إلى فرعون.

ونحن نعلم أن سورة هود عرضت لمواكب الرسل: نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم - عليهم جميعاً السلام - وجاء الحديث فيها عن موسى عليه السلام مرتين: مرة فى علاقته بفرعون ، ومرة فى علاقته ببنى إسرائيل.

وفى كل لقطة من اللقطات مهمة أساسية من مهمات المنهج الإلهى للناس عموماً ، من أول آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة ؛ إلا أنه عند ذكر كل رسول يأتى باللقطة التى تعالج داءً موقوتاً عند القوم.

فالقَدْر المشترك فى دعوات كل الرسل هو قوله سبحانه:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم (١) مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. (٥٩) ﴾ [الأعراف]

ثم يختلف الأمر بعد ذلك من رسول لآخر ، فمنهم من يأمر قومه ألا يعبدوا الأصنام ؛ ومنهم من يأمر قومه ألا ينقصوا الكيل والميزان.

وهكذا نجد فى كل لقطة مع كل رسول علاج داء من داءات (٢) تلك

---

(١) ما - هنا - نافية بمعنى: ليس. أى: ليس لكم إله غيره.

(٢) الداء: المرض ظاهراً أو باطناً، والعيب ظاهراً أو باطناً. ويقال: فلان ميت الداء: لا يحقد على من يسيء إليه. وداء الأسد: الحمى. وداء الظبى: الصحة والنشاط. وداء الملوك: النقرس. وداء الكرم: الدين والفقر. وداء الضرائر: الشر الدائم. وداء البطن: الفتنة العمياء. وداء الذئب: الجوع. والجمع: أدواء. [المعجم الوسيط مادة (د و أ)] ويجوز التأنيث فيقال: داءة وجمعها: داءات، وهى الأمراض سواء أكانت مادية أم معنوية.

الأمة ، أما الإسلام فقد جاء ليعالج داءات البشرية كلها؛ لذلك جمعت كل القيم الفاضلة فى القرآن كمنهج للبشرية[(١)].

لذلك فالحق سبحانه لا يقص علينا القصص القرآنى للتسلية ، أو لقتل الوقت ، أو لتعلم التاريخ ؛ ولكن لنلتقط العبرة من رسالة كل رسول إلى أمته التى بعث إليها ليعالج داءها.

وبما أن أمة محمد ﷺ ستكون آخر عهد لالتقاء البشر بالبشر[(٢)] ، وستكون فيها كل أجواء وداءات الدنيا ، لذلك فعليهم التقاط تلك العبر ؛ لأن رسالتهم تستوعب الزمان كله ، والمكان كله.

والحق سبحانه هنا يقول:

﴿ ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أنه إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة ؛ فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما.

وقوله سبحانه: ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ..(١١٠) ﴾ يصح أن يكون الاختلاف فى أمر موسى ، ويصح أن يكون الاختلاف فى أمر الكتاب ، والخلاف فى واحد منهما يؤدى إلى الخلاف فى الآخر ؛ لأنه لا انفصال بين موسى عليه السلام ، والكتاب الذى أنزله الله عليه.

وهكذا فالأمران يلتقيان: أمر الرسالة فى الكتاب ، وأمر الرسول فى الاصطفاء ؛ ولذلك لم يجعلهما الحق سبحانه أمرين ، بل هما أمر

(١) يقول الحق : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] إذن : جُمعت قيم الأديان فى الكتاب الخاتم المنزل على الرسول الخاتم لتوحيد الإنسانية على الحق والخير والسلام.

(٢) مقصود فضيلة الشيخ أن أمة محمد ﷺ هى آخر الأمم منذ بعثة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ورسولها محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل.

واحد ؛ لأن الرسول لا ينفصل عن منهجه.

وقوله الحق: ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ..(١١٠)﴾ أمر يتعلق بفعل الحق سبحانه ، ولله[1] ذات ، ولله صفات ، ولله أفعال.

وهو سبحانه مُنَزَّه فى ذاته عن أى تشبيه ، ولله صفات ، وهى ليست ككل الصفات ، فالحق سبحانه موجود ، وأنت موجود ، لكن وجوده قديم أزلىٌّ لا ينعدم ، وأنت موجود طارئ ينعدم.

ونحن نأخذ كل ما يتعلق بالله سبحانه فى إطار:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١)﴾ [الشورى]

فإذا تكلم الحق سبحانه عن الفعل فخذ كل فعلٍ صدر عنه بقوته سبحانه غير النهائية.

وقوله سبحانه هنا:

﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ..(١١٠)﴾ [هود]

نفهم منه أن هذا الفعل قد استلزم صفات متكاملة ، علماً وحكماً ، وقدرةً ، وعفواً ، وجبروتاً ، وقهراً ، فهناك أشياء كثيرة تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان.

وقد يسأل سائل: وما دام موسى عليه السلام قد أوتى الكتاب ، واختُلف فيه ، فلماذا لم يأخذ الحق سبحانه قوم موسى كما أخذ قوم نوح، أو قوم عاد ، أو قوم ثمود ، أو بقية الأقوام الذين أخذهم الله بالعذاب ؟

---

(١)توحيد الذات هى لغة القلب بالوحدانية والتفريد والتجريد لله، يقول الحق: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام] وللذات عطاءات كلما ذكرته مُوحداً فأنت في رقى دائم وتستحق من الله عطاء الصفات - فتستحق الرحمة من الرحيم، والرزق من الرزاق، والجبر من الجبار، فمن أحب الذات وهبتْ له عطاءات الصفات، وفى أسمائه الحسنى الزاد المطلوب - [من مفهوم الخواطر].

ونقول: ما نجـوا من عذاب الله بقدرتهم ؛ بل لأن الحق سبـحانه قد جعل عذابهم آجلاً [١]، وهو يوم الحساب.

ولذلك قال سبحانه فى الآية نفسها:

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. (١١٠) ﴾ [هود]

وبذلك حكم الحق حكماً فـاصلاً ، كما حكم على الأمم الســابقة التى كانت مهمة رسلهم هى البلاغ ، ولم تكن مـهمة رسلهم أن يحاربوا من أجل إرساء دعوة أو تثبيت حق ؛ ولذلك كانت السماء هى التى تتدخل بالأمر النهائى.

لكن اختلف الأمـر فى رسالة موسى عليه السلام ، فقد سبـق فيه قول الله تعالى بالتأجيل للحساب إلى يوم القيامة.

ثم يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) ﴾ [هود]

كأنهم فى شك من يوم القيامة ، وفى شك من الحساب ، مثل قوله سبحانه فى أول الآية عن الاختلاف فى الكتاب وموسى عليه السلام.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [٢] (١١١) ﴾

---

(١) وهذه هى الكلمة التى ذكرها الله سبحانه هنا: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ..(١١٠) ﴾ [هود] قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٢٣) : «الكلمة: أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيـامة لما علم فى ذلك من الصلاح، ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر».

(٢) الخبير: من أسمـاء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ .. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) ﴾ [الأنعام]. والخبير: العالم ببواطن الأمور. قال تعالى: ﴿ .. فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان] [القاموس القويم : مادة (خ ب ر)].

إذن: فالحق سبحانه قد أخذ قوم الرسل السابقين على موسى بالعذاب ، أما في بدء رسالة موسى عليه السلام فقد تم تأجيل العذاب ليوم القيامة.

ويبيِّن الحق سبحانه: لا تعتقدوا أن تأجيل العذاب ليوم القيامة يعني الإفلات من العذاب ، بل كل واحد سيوفَّى جزاء عمله ؛ بالثواب لمن أطاع ، وبالعقاب لمن عصا ، فأمر الله سبحانه آت - لا محالة [1] - وتوفية الجزاء إنما تكون على قدر الأعمال ، كفراً أو إيماناً ، صلاحاً أو فساداً ، وميعاد ذلك هو يوم القيامة.

وهنا وقفة في أسلوب النص القرآني، حتى يستوعب الذين لا يفهمون اللغة العربية كملَكة [2] ، كما فهمها العرب الأقدمون.

ونحن نعلم أن العربي القديم لم يجلس إلى معلم، لكنه فهم اللغة ونطق بها صحيحة ؛ لأنه من أمة مفطورة [3] على الأداء البياني الدقيق ، الرقيق ، الرائع.

فاللغة - كما نعلم - ليست جنساً ، وليست دماً ، بل هي ظاهرة اجتماعية ، فالمجتمع الذي ينشأ فيه الطفل هو الذي يحدد لغته ، فالطفل الذي ينشأ في مجتمع يتحدث العربية ، سوف ينطق بالعربية ،

---

(١) المحال: ما اقتضى الفساد من كل جهة كاجتماع الحركة والسكون في جسم واحد. والمحال من الأشياء: ما لا يمكن وجوده. والمحال من الكلام: ما عدل به عن وجهه. والمَحَالة: الحيلة. والجمع: مَحال، ومَحاول - بفتح الميم فيهما - ويقال: لا محالة من ذلك، أي: لا بد منه. [المعجم الوسيط : مادة (ح و ل)] بتصرف.

(٢) الملكة - بفتح الميم واللام والكاف - : صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل الملكة العددية، والملكة اللغوية. [المعجم الوسيط:مادة (ملك)].

(٣) فطر الشيء، فطراً: شقَّه. والجمع: فطور. والاسم: الفطرة. قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠) ﴾ [الروم] أي: خلقته التي خلق الناس عليها. وقوله تعالى: ﴿ .. هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك] أي: من صدوع، أي: هل ترى من خلل أو فساد في الخلق ، والاستفهام هنا للنفي، أي: لا ترى أي خلل. [القاموس القويم : مادة (فطر)].

والطفل الذى يوجد فى مجتمع يتحدث اللغة الإنجليزية ، سينطق بالإنجليزية ؛ لأن اللغة هى ما ينطق به اللسان حسبما تسمع الأذن.

وكانت غالبية البيئة العربية فى الزمن القديم بيئة منعزلة ، وكان من ينشأ فيها إنما يتكلم اللغة السليمة.

أما العربى الذى عاش فى حاضرة مثل مكة ، ومكة - بما لها من مكانة - كانت تستقبل أغراباً كثيرين ؛ ولذلك كان أهل مكة يأخذون الوليد فيها لينقلوه إلى البادية ؛ حتى لا يسمع إلا اللغة العربية الفصيحة ، وحتى لا يحتاج إلى من يضبط لسانه على لغة العرب الصافية.

ولنقرِّبْ هذا الأمر ، ولننظر إلى أن هناك فى حياتنا الآن لغتين: لغة نتعلمها فى المنازل والشوارع ونتخاطب بها، وتسمى «اللغة العامية»، ولغة أخرى نتعلمها فى المدارس، وهى اللغة المصقولة [1] المميزة بالفصاحة والضبط.

وكان أهل مكة يرسلون أبناءهم إلى البادية لتلتقط الأذن الفصاحة[2]، وكانت اللغة الفصيحة هى «العامية» فى البادية ، ولم يكن الطفل فى

---

(١) المصقول: اسم مفعول من الفعل «صقل». وصقل الشيء صقلاً وصقالاً: جلاه . يقال: صقل السيف والمرآة ونحوهما. ويقال: صقل كلامه: هذبه ونمقه. وصقل الدابة: تعهدها بالتربية. وتستخدم هذه الكلمة أيضاً للتعبير عن إجادة شيء مثل اللغة ، والموهبة ، فيقال: صقل لغته ، أى: تدرب عليها حتى أجادها. وصقل موهبته بالدراسة ، أى: تدرب على استخدامها حتى أجادها. [المعجم الوسيط : مادة (صقل)] بتصرف.

(٢) ومما يبين أن اللغة العربية فى الجزيرة العربية مصاحبة للفطرة السليمة والملكة الراسخة ما حُكى، أن سقَّاء أمر ابنه أن يمسك بفم قِرْبة الماء، فقال الغلام لأبيه :«يا أبتِ إن القربة غلبنى فُوها أدرك فاها لا طاقة لى بفيها» وفى هذا المنطق قواعد لإعراب الأسماء الخمس أو الست فهى تُعربُ بالواو رفعاً، وبالألف نصباً، وبالياء جراً، والأمثلة لا حصر لها وفى المراجع مزيد لكل من أراد.

البادية يحتاج إلى معلم ليتعلمها ؛ لأن أذنه لا تسمع إلا الفصاحة.

وكانت هذه هى اللغة التى يتفوق فيها إنسان ذلك الزمان كملكة ، وهى تختلف عن اللغة التى نكتسبها الآن ، ونصقلها فى مدارسنا ، وهى لغة تكاد تكون مصنوعة ، فما بالنا بالذين لم يتعلموا العربية من قبل من المستشرقين، ويتعلمون اللغة على كِبَر .

وهؤلاء لم يمتلكوا صفاء اللغة ، لذلك حاولوا أن يطعنوا فى القرآن ، وادعى بعض من أغبيائهم أن فى القرآن لحناً [1]، قالوا ذلك وهم الذين تعلموا اللغة المصنوعة ، رغم أن من استقبلوا القرآن من رسول الله ﷺ وهم أهل الفصاحة، لم يجدوا فى القرآن لحناً ، ولو أنهم أخذوا لحناً على القرآن فى زمن نزوله ؛ لأعلنوا هذا اللحن ؛ لأن القرآن نزل باللغة الفصيحة على أمة فصيحة ، بليغة ، صناعتها الكلام.

ولأمرٍ ما أبقى الله سبحانه صناديد[2] قريش وصناديد العرب على كفرهم لفترة ، ولو أن أحداً منهم اكتشف لحناً فى القرآن لأعلنه.

وذلك حتى لا يقولن أحد أنهم قد آمنوا فستروا على القرآن عيوباً

---

(١) لحن لفلان يلحن لحناً: كلّمه كلاماً يفهمه دون غيره لما فيه من تورية، أو تعريض، أو إشارة خفية. قال تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ..(٣٠) ﴾ [محمد] أى: إنك ستعرف المنافقين فى أسلوبهم فى القول بإخفائه وتحريفه، أى: ستعرفهم فى خطأ القول وزلات اللسان. ولحن فى كلامه: أخطأ. وفى « المعجم الوسيط » : لحنُ القول: فحواه، وما يفهمه السامع المتأمل فيه من وراء لفظه، ويمكن أن يفسر بذلك أيضاً. والمراد باللحن فى اللغة: الخطأ فيها والخروج عن قواعدها. [القاموس القويم : مادة (لحن) بتصرف].

(٢) الصنديد: الشديد. والجمع: صناديد. ويقال: يوم حامي الصناديد: شديد الحر. ويقال: برد صنديد، وريح صنديد، ومطر صنديد، أى: شديد. وصناديد القدر: دواهيه. [المعجم الوسيط : مادة (صندد)] بتصرف.

فيه. ولو كان عند أحدهم مَـهْمَزٌ لما منعـه كفره أن يبيـن ذلك ، فهل يمكن لهؤلاء المسـتشرقين الذين عاشوا فى القـرن العشرين أن يجدوا لحناً فى القـرآن ، وهم لم يمـتلكوا ناصـية اللغـة ملكة ، بل تعلمـوها صناعة، والصنعة عديمة الإحساس الذوقى.

ومثال ذلك: عدم فهم هؤلاء لأسرار اللغة فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فالحق سبحانه يقول:

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ[1] رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾

[هـود]

أى: أن كل واحد من الذين صـدَّقوا أو من الذين كذَّبوا ، له توفـية فى الجزاء ، للطائع الثواب ؛ وللعاصى العقوبة.

وكلمة «إنَّ» - كمـا نعلم - هى فى اللغة «حرف توكيـد» فى مقابلة مَنْ ينكر ما يجىء بعدها.

والإنكار - كـمـا نعـلم - مـراحل ، فـإذا أردت أن تخـبـر واحـداً بخـبر لا يعلمه ، فأنت تقول له مثلاً: «زارنى فلان بالأمس».

وهكذا يصادف الخبر ذهن المستمع الخالى، فإن قال لك: «لكن فلاناً كان بالأمس فى مكان آخر»، فأنت تقول له: «إن فلاناً زارنى بالأمس».

---

(١) وفَى الشىء يفى وَفْياً: تم ولم يذهب منه شىء. ووفَّى الرجل بالعـهد وفاء: قـام به ونفذه، فـهو واف. واسم التفضيل: أوفى. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. (١١١) ﴾ [التوبة] أى: أن الله أعظم وفـاء ممن سـواه. وقال تعـالى: ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) ﴾ [النجم] أى: الجـزاء الأتم الأكمل. ووفَّى إليه حقه: أوصله إلـيه كاملاً. ويتعدى هذا الفعل لمـفعولين فيقال: وفَّـاه حقه. واسم الفاعل: موف «اسم منقـوص». قال تعالى: ﴿ .. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) ﴾ [هود] [القاموس القويم : مادة (وفى)].

وحين يرد عليك السامع: «لكننى قابلت فلاناً الذى تتحدث عنه أمس فى المكان الفلانى».

وهنا قد تؤكد قولك: «والله لقد زارنى فلان بالأمس».

إذن: فأنت تأتى بالتوكيد على حَسْب درجة الإنكار[1].

وحين يؤجل الحق سبحانه العذاب لبعض الناس فى الدنيا ،قد يقول غافل: لعل الله لم يعد يعذِّب أحداً.

ولذلك بيَّن الحق سبحانه مؤكداً أن الحساب قادم ، لكل من الطائع المصدِّق ، والعاصى المكذِّب ، فقال سبحانه:

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ .. (١١١) ﴾ [هود]

والذين لم تستقم لهم اللغة كملكة ، كالمستشرقين ، وأخذوها صناعة ، توقفوا عند هذه الآية وقالوا: لماذا جاء بالتنوين فى كلمة «كلاً» ؟

وهم لم يعرفوا أن التنوين[2] يغنى عن جملة ، فساعة تسمع أو تقرأ التنوين ، فاعلم أنه عِوَضٌ عن جملة ، مثل قول الحق سبحانه:

---

(١) إن التوكيد للمنكر من فنون البلاغة، يقول الإمام السيوطى فى الإتقان (١٩٣/٣): «ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه، كقوله تعالى حكاية عن رسل عيسى إذ كذبوا فى المرة الأولى ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ [يس] ، فأكد بإن وإسمية الجملة . وفى المرة الثانية : ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)﴾ [يس] . فأكّد بالقسم وإن واللام وإسمية الجملة، لمبالغة المخاطبين فى الإنكار حيث قالوا: ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ(١٥) ﴾ [يس]».

(٢) التنوين فى اللغة : هو نون ساكنة تتبع آخر الاسم لفظاً وتفارقه خطاً، وهو أنواع منها تنوين التمكين والتنكير والعرض والترنم . [راجع : شرح الأشمونى على الألفية (١ / ١٨)].

﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ [1] (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤)﴾ [الواقعة]

و«كلاً» فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها توجز أن كلاً من الطائع المؤمن ، والعاصى الكافر ، سوف يلقى جزاءه ثواباً أو عقاباً.

أما قوله سبحانه: ﴿لَمَّا﴾ فى نفس الآية، فنحن نعلم أن «لما» تستعمل فى اللغة بمعنى «الحين» و«الزمان» مثل قول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا [2] وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ..(١٤٣)﴾ [الأعراف]

ومثل قوله سبحانه:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ [3] الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ [4] يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ [يوسف]

أى: حين فصلت العير وخرجت من مصر قال أبوهم: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ .

---

(١) الحلقوم: الحلق . والحلقوم علمياً الآن: هو تجويف خلف تجويف الفم، وفيه ست فتحات: فتحة الفم، وفتحتا المنخرين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحنجرة؛ ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المرىء، أما النفس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة. قال تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾ [الواقعة] كناية عن الاحتضار للموت، أى: بلغت الروح الحلقوم وهى خارجة من الجسد. [القاموس القويم: مادة (ح ل ق)].

(٢) الميقات: الوقت المحدد لعمل من الأعمال. قال تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..(١٤٢)﴾ [الأعراف] أى: تم الزمن المحدد لمناجاة ربه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)﴾ [الدخان]. أى: وقتهم المحدد لبعثهم وحسابهم. والجمع: مواقيت. [القاموس القويم : مادة (وقت)].

(٣) فصل عن المكان: جاوزه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ .. (٩٤)﴾ [يوسف] أى: خرجت وجاوزت المدينة. [القاموس القويم : مادة (فصل)].

(٤) قوله : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ [يوسف] أى: ريحاً تحمل رائحته، أو الريح بمعنى الرائحة، أى : رائحته. [القاموس القويم ١ / ٢٨٠].

و«لما» تأتى أيضاً للنفى مثل قوله سبحانه:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. ⦃١٤⦄﴾ [الحجرات]

أى: أن الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد، وتحمل كلمة «لما» الإذن بأن الإيمان سوف يدخل قلوبهم بعد ذلك.

وحين تستخدم كلمة «لما» فى النفى تكون «حرفاً» مثلها مثل كلمة «لم» ، ولكنها تختلف عن «لم» لأن «لم» تجزم الفعل المضارع ، ولا يتصل نفيها بساعة الكلام ، بل بما مضى ، وقد يتغير الموقف. أما «لما» فيتصل نفيها إلى وقت الكلام ، وفيها إيذان بأن يحدث ما تنفيه.

وهكذا نفهم أن قول الحق سبحانه:

﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[1] ⦃١١١⦄﴾ [هود]

أى: أن كلاً من الطائع والعاصى سيوفَّى حسابه وجزاءه ثواباً أو عقاباً ، حين يأتى أجل التوفية ، وهو يوم القيامة.

وقد جاءت «لما» لتخدم فكرة العقوبة التى كانت تأتى فى الدنيا ، وشاء الله سبحانه أن يؤجل العقوبة للكافرين إلى الآخرة ، وأنسب حرف للتعبير عن ذلك هو «لما».

وحين تقرأ ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ تجد اللام ، وهى لام القسم بأن الحق سبحانه سيوفيهم حسابهم إن ثواباً أو عقاباً.

---

(١) الخبير : من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿.. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ⦃١٨⦄﴾ [الأنعام]. وخبر الأمر، وخبر بالأمر، كعلمه، وعلم به – وزناً ومعنًى – فهو به خبير. والخبير: العالم ببواطن الأمور. قال تعالى: ﴿.. فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ⦃٥٩⦄﴾ [الفرقان] . [القاموس القويم : مادة (خبر)].

والله سبحانه بما يفعل العباد خبير ، وهو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أن تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أن تُنسَى أو تذهب أدراج الرياح ؛ لأن من يعلمها هو «الخبير» صاحب العلم الدقيق ، والخبير يختلف عن العالِم الذى قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرَّب على التخصص.

ولذلك غالباً ما تأتى كلمتا «اللطيف والخبير» معاً ؛ لأن الخبير هو من يعلم مواقع الأشياء ، واللطيف هو من يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء.

ومثال هذا: أنك قد تعرف مكان اختباء رجل فى جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول والنفاذ إلى مكانه، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللطف.

والحق سبحانه جاء بهذا الحديث عن موسى عليه السلام ليسلِّى رسوله ﷺ، لأن بعضاً من الكافرين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام قالوا: ما دام الله يأتى بالعذاب ليبيد من يكفرون برسله ، فلماذا لا يأتى لنا العذاب[1]؟

ولهذا جاء ما يخبر هؤلاء بأن الحق سبحانه سيوقع العقوبة على الكافرين، لا محالة ، فإياك أن يخادعوك – يا رسول الله – فى شىء،

(١) إن وعد الله له توقيته المراد له مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم] وقوله :﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم]

أو يساوموك على شيء ، مثلما قالوا : نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة (١).

وقد سبق أن قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأن أنزل:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤)﴾ [الكافرون]

وهذا هو قطع العلاقات التام في تلك المسألة التي لا تقبل المساومة، وهي العبادة.

ونحن نعلم أن العبادة أمر قلبي، لا يمكن المساومة فيه، وقطع العلاقات في مثل هذا الأمر أمر واجب؛ لأنه لا يمكن التفاوض حوله؛ فهي ليست علاقات ظرف سياسي، ولكنه أمر ربَّاني ، يحكمه الحق سبحانه وحده.

وقول الحق سبحانه:

﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤)﴾ [الكافرون]

هذا القول الكريم يشعر من يسمعه ويقرؤه أنهم سيظلون على

---

(١) ذكر الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦١) «أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾ [الكافرون] إلى آخر السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك».

عبادة غير الله ، وأن محمداً سيظل على عبادة الله ، وأن كلمة «الله» ستعلو ؛ لأن الحق سبحانه يأتى بعد سورة «الكافرون» بقوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾[1] [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿فَاسْتَقِمْ[2] كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا[3] إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)﴾

والاستقامة معناها: عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تحقيقه ؛ لأن الفاصل بين الضدين ، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة فى بعض الأحيان.

ومثال ذلك: حين ترى الظل والضوء ، فأحياناً يصعد الظل على الضوء ، وأحياناً يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة فى تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس.

---

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : إذا جاءك نصر الله - يا محمد - على قومك من قريش، والفتح: فتح مكة. ورأيت الناس: من صنوف العرب وقبائلها يدخلون فى دين الله أفواجاً: أى: فى دين الله الذى ابتعثك به. أفواجاً : يعنى: زمراً (جماعات) ، فوجاً فوجاً . فسبح بحمد ربك: أى : فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، واستغفره : وسله أن يغفر ذنوبك. إنه كان تواباً : أى: ذا رجوع لعبده المطيع إلى ما يحب. [مختصر تفسير الطبرى - بتصرف].

(٢) استقام الشىء : خلا من العوج. واستقام المؤمن : سلك الطريق القويم. قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ .. (٧)﴾ [التوبة] أى: حافظوا على الوفاء لهم بعهدكم ما داموا هم يحافظون على عهودكم، ولم ينكثوا العهد معكم. [القاموس القويم : مادة (قوم)].

(٣) طغا يطغو طغواناً وطغوى: فعل واوى، بمعنى: تجاوز الحد فى الجور والتعدى. وطغى يطغى وطغى طغياناً : فعل يائى، بمعنى: تجاوز الحد. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١)﴾ [الفجر]. أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. [القاموس القويم : مادة (طغى)].

وهكذا يصبح فصل الشيء عن نقيضه صعباً ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «شيبتني هود وأخواتها» [1].

ولولا أن قال الحق سبحانه في كتابه الكريم:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [2] .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فلولا نزول هذه الآية لتعب المسلمون تماماً ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ [3] .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وعزّ ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، فأنزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

إذن: فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً ونهياً ، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة.

---

(١) عن أبي جحيفة قال: قالوا يا رسول الله نراك وقد شبت؟ قال: «شيبتني هود وأخواتها» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤ / ٣٥٠) وأورده الهيثمي في المجمع (٣٧/٧) من حديث عقبة بن عامر وعزاه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح، وأخوات سورة هود التي شيبت رسول الله هي سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير. انظر الترمذي في سننه (٣٢٩٧).

(٢) اتقى: أصله (أوتقى) على وزن (افتعل) ، قلبت واو الفعل تاء، وأدغمت في تاء الافتعال. واتقى الله: تجنب ما يغضبه، وما يسبب عذابه، وذلك بطاعة الله، وبالبعد عن معصيته. قال تعالى: ﴿ .. لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ﴾ [البقرة] أي: تحفظون أنفسكم من عذاب الله بطاعته وترك معصيته. [القاموس القويم: مادة (و ق ى)].

(٣) التقاة: الاتقاء والتقوى، وأصلها: وقية، قلبت الواو تاء، والياء ألفاً. وجمعها: تقى. قال تعالى: ﴿ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً .. (٢٨) ﴾ [آل عمران] . أي: إلا أن تخافوا منهم شراً، وتحذروا منهم مكروهاً، لا تريدونه لأنفسكم. [القاموس القويم : مادة (وقى)].

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ .. (١١٢) ﴾ [هود]

وهذا إيذان بألاَّ ييأس رسول الله ﷺ من وقوف صناديد قريش أمام دعوته ﷺ ؛ لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) ﴾ [هود]

يعنى ألا نتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد.

وهكذا نعلم أن الإيمـان قـد جـعل لكل شيء حداً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهى ؛ فالحق سبحانه إن أمرك بشيء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده.

وقال الحق سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا [1] .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وهذا القول فى الأوامر ، أما فى النواهى فقد قال سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا [2] .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) اعتدى: ظلم وجار. قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة] أى: فعاقبوه على اعتدائه. وسُمِّى عقاب المعتدى اعتداءً: للمشاكلة. وعدا يعدو، عدواً : جرى. وعدا عليه عدواً وعدواناً : ظلمه وصال عليه، مثل: اعتدى عليه. والمراد بعدم الاعتداء هنا: عدم تجاوز حدود الله التى نهى سبحانه عن اقترافها. [القاموس القويم : مادة (عدا) بتصرف].

(٢) قربت الأمر، أقربه قرباناً وقرباً: فعلته أو دانيته. ومنه قول الله تعالى:﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ .. (٣٢) ﴾ [الإسراء] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] أى: لا تأتياها ولا تلمساها ولا تأكلا منها والنهى من باب أولى عن الشيء. وكذلك: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ .. (٣٢) ﴾[الإسراء] فإنه نهى عن القرب منه، وهو نهى عن اللمس وعن القبلة ونحوها مما يقرب الإنسان من الوقوع فيه. [القاموس القويم : مادة (ق ر ب)].

أى: أن تبتعد عنها تماماً.

ويقول رسول الله ﷺ : «من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى [(١)] يوشك أن يرتع [(٢)] فيه ، ألا وإن لكل ملكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه» [(٣)].

وحين ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شىء فهذه هى استقامة الاحتياط ، وهى قد تسمح لك بأن تدخل فى التحريم ما ليس داخلاً فيه ، فمثلاً عند تحريم الخمر ، جاء الأمر باجتنابها أى: الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر فى مكان.

وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة فى مسائل الطاعة ، وهو سبحانه يقول:

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا [(٤)] .. (١٤١) ﴾ [الأنعام]

---

(١) قال النووى فى شرحه: «معناه أن الملوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمنعهم دخوله، فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى، خوفاً من الوقوع فيه» (٣/ ١٢٢٠) ط. فؤاد عبد الباقى.

(٢) الرتع: الأكل بشره. والرتع فى الخصب هو الرعى فيه. وأرتع القوم: وقعوا فى خصب ورعوا. [اللسان : مادة رتع].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) أسرف : جاوز القصد والاعتدال، فهو سرف، ويكون فى المال وفى غيره. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان] أى: معتدلاً فى إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر] أى: جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿ فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ .. (٣٣) ﴾ [الإسراء] أى : لا يقتل أكثر من القاتل، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية، فيقتلون بالشريف عدداً من قبيلة القاتل. وقال تعالى: ﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) ﴾ [الشعراء] والإسراف يكون فى أمور كثيرة، لا فى إنفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين : لا إسراف فى الخير، ولا خير فى الإسراف. [القاموس القويم : مادة (سرف)].

والنهى عن الإسراف هنا ؛ ليعصمنا الحق سبحانه من لحظة نتذكر فيها كثرة ما حصدنا ، ولكننا لا نجد ما نقيم به الأود [(١)] فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتى له ظروف صعبة فيقول: «يا ليتنى لم أُعْطِ». وهكذا يعصمنا الحق سبحانه من هذا الموقف.

ويقول رسول الله ﷺ : «سدِّدوا [(٢)] وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل» [(٣)] ؛ لأن الدين قوى متين [(٤)] ، و« لن يشاد الدين أحد إلا غلبه » [(٥)].

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله ﷺ أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الحلِّ أيضاً، فيوصينا سبحانه بالرفق واللين والهوادة ، وأن يجعل الإنسان لنفسه مُكْنَة الاختيار.

ومثال ذلك: أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك نذراً لله تعالى فى ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ فى مزاولة ذلك القدر يكتشف صعوبته ، فتكرهه نفسه.

---

(١) الأود : أى ما يكون قوتاً ضرورياً له، فتقوم به حياته.

(٢) سد الشىء سداداً وسدوداً : استقام. يقال: سد السهم، وسد فلان: أصاب قوله وفعله. وسد قوله وفعله: استقام وأصاب، فهو سديد. والسداد: الاستقامة والقصد، والصواب من القول والفعل. [المعجم الوسيط : مادة (سدد) بتصرف].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٢) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

(٤) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩٩).

(٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة» أخرجه النسائى فى سننه (٨/١٢٢).

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان ؛ استقامة فى تحديد المأمور به والمنهى عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط فى أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة.

ويقول رسول الله ﷺ : «الحلال بيِّن[١]، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ[٢] لدينه وعرضه»[٣].

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا فى الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ، وأن نحتاط مرة بالنقص ، فحين تصلى خارج المسجد الحرام، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلى فى المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان: قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه «الحطيم»[٤] وهو جزء من الكعبة ، لكن نفقتهم أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ؛ فلم يبنوه[٥].

لذلك فأنت تتجه ببصرك إلى البناء العالى المقطوع بكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص.

---

(١) بيِّن: صيغة مبالغة من البيان. أى: شديد الوضوح.

(٢) استبرأ من الدَّين والذنب: طلب البراءة منه. واستبرأ الشىء: تقصى بحثه ليقطع الشبهة عنه. [المعجم الوسيط : مادة (برأ)].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) الحطيم: الجدار، وهو هنا جدار الكعبة. قال الأزهرى: الذى فيه المرزاب، وإنما سمى حطيماً لأن البيت رفع وترك ذلك محطوماً. [اللسان ، مادة : حطم].

(٥) عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (هو حجر الكعبة) أمن البيت هو؟ قال: نعم. قلت: فلم لم يدخلوه فى البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة. قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت وأن ألزق بابه بالأرض» متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٨٤) ومسلم فى صحيحه (١٣٣٣ - رواية رقم ١٠).